# بين: أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي

للأستاذ محمود عبد العزيز محرم

---

شهد القرن الثالث الهجرى رجلين كبيرين ، أحدهما أحمد بن حنبل ، والآخر الحارث المحاسبي .

كان الأول يمثل أصحاب السنة وأرباب التقليد والمستمسكين بظاهر القرآن والحديث . وكان الآخر من رجال المواجيد والأذواق ، وصفاء القلوب ، وتطهير النفوس ، وتزكية الأرواح . ورغم ما بينهما من قرب الغاية ، إن لم نقل وحدة الغاية ، فقد شب بينهما خلاف خطير تبادلا فيه النقد والمعارضة .

لم يكن أحمد بن حنبل رجلا متهاونا فى دينه . كان فوق الشكوك والريب من هذه الناحية . وكان ذا مكانة شعبية لاعتقاد العامة فيه وإيمانهم بصلاحه وورعه وتقواه . وارستقراطيته لأنه قمة العلم السلفى فى عصره ، فعلماء الفقه والحديث والتشريع ينصبونه إماما حجة ثبتا فى علومهم وأحكامهم ، ودعاة الحرية أو كبار المعتزلة يرونه أستاذاً لا تستصغره البصائر ولا تتخطاه الأنظار ، إذ كانوا دائماً ينتظرون كلمته كرجل يمثل ثقافة معينة ذات حظ راجح فى الموازين ، وهو خير من يمثلها ويفصح عنها . وحسبه أنه هو صاحب « المسند » ، وهو كتاب فى حديث الرسول ، ضم بين دفتيه زهاء ثلاثين ألف حديث ، غاص عليها الإمام فى بحر النبوة ، وتنخلها من الميراث المحمدى الكريم . وقد جمع مسنده ليقف به فى وجوه دعاة الحرية العقلية والمروجين لها ليقيم دعائم السنة والشرع على أساس قويم .

والحارث المحاسبى هو صاحب كتاب « الرعاية لحقوق الله » . وقد بلغ فيه من تحليل نزعات النفس ، ونزوات الهوى ، وأمراض القلوب ، حدا لايجارى ولا يبارى . ويقول الأستاذ المستشرق ماسينون عن هذا الكتاب : « إن المحاسبى سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلا فى الآداب العالمية إلا نادراً . وقد كان للحارث أثر عظيم فى رجل عظيم من بعده ، هو الإمام الغزالى ، صاحب الإحياء . ويرى كثير من المؤرخين أن المحاسبى كان الملهم للغزالى فى وضع كتابه « المنقذ من الضلال » .

ولقد كان أهل الاعتزال يحكمون العقل فى نصوص الشرع ، ولئن كان أهل السنة وعلى رأسهم الإمام أحمد يعنون بالأحكام والتشريعات والحياة الظاهرة للمسلم ، فإن المحاسبي يرى غير هذا ، يرى غير ما يراه المعتزلة ، ويرى غير ما يراه أصحاب السنة ، أو قل هو يرى تطهير القلوب ، وبغض الجدل والمراء والورع عن الاغتياب والظلم والأذى ومخالفة الأهواء ، ومحاسبة النفس ، والاستعلاء على مطالب الجوارح ، والبعد عن الطمع ، ومجانبة الشهوات والتقلل من المباح ، والزهد فى الحلال والإشفاق من الحساب ، والوجل من الميعاد ، والإيثار على النفس . وهو بذلك من مذهب المتطهرين ، لا من العقليين ، ولا من المعنيين برسوم الظاهر .

• • •

والظاهر أن الحارث كان يصطنع شيئاً من أساليب المعتزلة ودعاة الحرية وهو فى ذلك على حق ، لأن عصره كان عصر جدل ومناقشة ، وكان لابد للحارث من أن يحذق الأساليب المختلفة ويلم بأطراف من العلم الجديد والعلم القديم ، فوق أذواقه الخاصة ومواجيده القلبية وهواتفه الروحية ؛ ليستطيع أن يوفى أفكاره ومعانيه حقها من التعبير الملائم والبيان المفيد . وليس معنى اصطناعه أساليب المتكلمين كثيراً أو قليلا أنه كان زائغاً فى عقيدته أو ضالا فى وجهته أو رقيق الدين ضعيف الإيمان ، إنه كان رجلا فى الصف الأول من المجاهدين البررة من هؤلاء الرجال الذين لا يسوغ لهم أن يهملوا الثقافات المختلفة إن كانوا يريدون النجاح فى دعوتهم وإقامة دعائمها وتثبيت أركانها .

والحارث من هذه الناحية لم يعجب الإمام أحمد بن حنبل. لقد رآه الإمام رجلا يحرفه تيار البدعة فى عهده ، فناصبه العداء ، وتكلم عنه ، ووهن من عقيدته . ولم يكن أحمد بن حنبل متسامحاً مع المعتزلة وأصحاب الحرية ، لا لأنه يبغض الحرية ، ولا لأنه يكره أن يعيش الناس أحراراً ، ولا لأنه لا يشغف بالعلم وبحوثه ، بل لأنه كان يرى أن هذه الحرية المعتزلية تدعو إلى تحكيم العقل فى الدين تحكيما قد يكون مشايعاً لأصحاب النحل الضالة والمعتقدات الفاسدة . وبما أنه رجل سلفى ، وذو مكانة ممتازة ، وينظر إليه على أنه إمام وحجة ، فلا بد أن يقف فى وجه هذه الآراء الحرة التى قد تطغى

يوما ما فتضل أصحابها والمتأثرين بها .

ولعله من الحق أن نقول إن الإمام أحمد لم ينتقد الحارث وحده ، بل هناك كثير غيره ، منهم الحسين بن على الكرابيسى . وهو عالم جليل جمع بين علمى الفقه والحديث . ويقول الخطيب البغدادى : « حديث الكرابيسى يعز جداً ، وذلك أن أحمد بن حنبل كان يتكلم فيه ، لما نال من ذكر سيء فى نظره » .

ويرجع ذلك إلى ولعه بعلم الكلام وبمذاهب المتكلمين عموما ، ثم إلى ميله بصفة خاصة إلى تطبيق النظريات الكلامية ، للوصول إلى آرائه فيما يتعلق بالقرآن .

ومما نقل عن الكرابيسى ، والحارث المحاسبى ، والبخارى ، ومحمد بن نصر المروزى ، قولهم بأن اللفظ بالقرآن مخلوق ، أى أن قراءة القرآن مخلوقة لا قديمة ، على غير ما يرونه فى القرآن ذاته من أنه قديم ، فالقرآن قديم ، ولكن القراءة التى نقرؤها مخلوقة محدثة . وهذه المقالة لم يسلم بها الإمام أحمد ، ووقع فى أصحابها ، وإن كان بعض الكتاب يرى أن الإمام لا يخالف فى هذه المقالة ، إلا أنه يؤثر عدم الكلام فيها ، لأنها بدعة يحسن توقيها . وهذا الاعتذار الأخير شبيه بعلم الإمام أحمد ومنهجه ، إذ ليس من المعقول أن يسوى بين القرآن والتلفظ به فى القدم أو الحدوث ، مع وضوح الفرق بينهما فى قضيتنا هذه . ويبدو أن مدار النزاع يدور حول منهج البحث أكثر مما يدور على صحة النتائج التى ينتهى إليها فى الآراء الاعتقادية . وقد جاء فى طبقات الشافعية : « اعلم أن الإمام أحمد رضى الله عنه ، كان يشدد النكير على من يتكلم فى علم الكلام . خوفاً أن يجر ذلك إلى مالا ينبغى » . وقد كان الحارث من الذين يستعينون بالعقل والقياس فى المسائل الاعتقادية . ولعل ذلك كان قبل أن يتوصل إلى منهجه فى الذوق وتطهير النفس وتصفية القلوب ثم ظلت هذه الشائبة عالقة به بعد ذلك .

. . .

أراد أحمد بن حنبل أن يستوثق مما إذا كان الحارث المحاسبى ضعيف الصلة بالله حقاً أم أنه جار عليه فى حكمه . فاحتال لذلك هو واسماعيل ابن اسحق السراج . يقول اسماعيل : قال لى أحمد : يبلغنى أن الحارث هذا يكثر الكون عندك ، فلو أحضرته

منزلك ، وأجلستنى من حيث ألايرانى فأسمع كلامه . فقصدت الحارث ، وسألته أن يحضرنا تلك الليلة ، وأن يحضر أصحابه . فقال : فيهم كثرة ، فلا نردهم على الكسب والثمن . فأتيت أبا عبد الله ( يعنى أحمد بن حنبل ) فأعلمته أن الحارث وصحبه سيحضرون فحضر إلى غرفة عندى ، واجتهد فى ورده . وحضر بعد ذلك الحارث وأصحابه ، فأكلوا ، ثم صلوا العتمة ، ولم يصلوا بعد ذلك . وقعدوا بين الحارث لا ينطقون إلى قريب نصف الليل . ثم ابتدأ رجل منهم فسأل عن مسألة ، فأخذ الحارث فى الكلام ، وأصحابه يستمعون ، كأن على رؤوسهم الطير . فمنهم من يبكى ، ومنهم من يحن ، ومنهم من يزعق . وهو فى كلامه . فصعدت فى الغرفة ، لأتعرف حال أبى عبد الله ، فوجدته قد بكى ، حتى غشى عليه . فانصرفت إلى الحارث وصحبه . ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا وذهبوا . فصعدت إلى أبى عبد الله ، فقال : ما أعلم أنى رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل .

لم ير أحمد مثل هؤلاء القوم . ولم يسمع فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل. إنهم قوم يتميزون بالإخلاص والوصول إلى الله ، لا ينكر عليهم ذلك أحد ، حتى الإمام أحمد الذى ناصبهم العداء وشهر بشيخهم الحارث ابن أسد المحاسبى . ويرى بعض الكتاب أن الإمام لم يغير رأيه فى الحارث تغييراً كاملا . ونحن نميل إلى أن أحمد بن حنبل لم يذع ما رأى من حال الحارث وأصحابه على مدى واسع خوفاً من أن يتبعه الناس ويتأثروا به نأخذ ذلك من نصيحته لاسماعيل ابن إسحق السراج بعدم صحبتهم . وما أبدع هذا التعليق الذى علق به صاحب طبقات الشافعية على هذه النصيحة إذ يقول « تأمل هذه الحكاية بعين البصيرة . واعلم أن أحمد بن حنبل إنما لم ير لهذا الرجل صحبتهم لقصوره عن مقامهم ، فإنهم فى مقام ضيق لا يسلكه كل أحد ، فيخاف على سالكه ، وإلا فأحمد قد بكى وشكر الحارث هذا الشكر » .

وقد كان لهذه الخصومة ، التى ثارت بين الإمام الفقيه والإمام المتصوف أثرها بعد ذلك ، فى المعركة التى شب أوارها بين ابن تيمية الفقيه الحنبلى وبين المتصوفة ، فهذه المعركة ترجع فى بعض أسبابها إلى هذا الميراث الذى انحدر إلى ابن تيمية من إمامه وشيخه أحمد بن حنبل .

محمود عبد العزيز محرم
مدرس بمبت غمر الثانوية